الاحتجاج والثورة في المفهوم اللاهوتي المسيحي

د. القس نصرالله زكريا
مدير المكتب الإعلامي للكنيسة الإنجيليّة - مصر
revnasralla@gmail.com

شهد العالم عبر تاريخه الكثير من الحركات الاحتجاجيّة والثورات التي غيّرت مجرى وأحداث التاريخ، وأثرت تأثيرًا مباشرًا في التكوين الإنساني، مما دفع بالإنسان إما إلى العزلة السياسيّة والمجتمعيّة، أو الانخراط والاندماج في الحياة السياسيّة والاجتماعيّة وصناعة التاريخ.

ولقد شهدت منطقتنا العربيّة -عبر ما أُطلِق عليه اسم «الربيع العربي»- الكثير من الاضطرابات والحركات الاحتجاجيّة والثورات التي أطاحت بأنظمةٍ سياسيّة، وهزت كِيانات ظنّ الكثير أنّها راسخة مستقرة، مما ألقى بظلال مختلفة على الحياة السياسيّة والدينيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، وقد دفع هذا بالكثيرين، وخاصة من المسيحيّين للتساؤل: هل هناك أسس كتابيّة ولاهوتيّة للمشاركة في تلك الأحداث والمساهمة في تغيير المجتمعات التي يعيشون فيها؟ وهل من أُطر يجب أن يتحركوا من خلالها، أم أنَّ عليهم الانزواء بعيدًا عن معترك الحياة العامة، وليفعل الله ما يشاء؟

هنا لابد أن نشير إلى ثلاث مدارس فكريّة ولاهوتيّة تباينت فيما بينها حول الإجابة على هذه الأسئلة.

المدرسة الأولى تدعو للانفصال التام والانعزال عن شؤون العالم والمجتمع، بل تتخذ موقف العداء للعالم والحرب ضده، حيث أنَّ العالم شرير وفاسد، لذا يجب الابتعاد عنه وعدم مخالطة أهله، وأساليبه وأدواته، وهم يعتمدون في دعوتهم هذه على بعض من آيات الكتاب المقدس مثل: «لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ أَوْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللَّهَ وَالْمَالَ» (متى ٦: ٢٤)، «اعْتَزِلُوا عَنْ خِيَامِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ الْبُغَاةِ وَلا تَمَسُّوا شَيْئًا مِمَّا لَهُمْ لِئَلا تَهْلِكُوا بِجَمِيعِ خَطَايَاهُمْ» (عدد ١٦: ٢٦)، «اِعْتَزِلُوا. اعْتَزِلُوا. اخْرُجُوا مِنْ هُنَاكَ. لاَ تَمَسُّوا نَجِسًا. اخْرُجُوا مِنْ وَسَطِهَا. تَطَهَّرُوا يَا حَامِلِي آنِيَةِ الرَّبِّ» (إشعياء ٥٢: ١١)، «لِذَلِكَ اخْرُجُوا مِنْ وَسَطِهِمْ وَاعْتَزِلُوا، يَقُولُ الرَّبُّ. وَلاَ تَمَسُّوا نَجِسًا فَأَقْبَلَكُمْ» (٢كورنثوس ٦: ١٧).

المدرسة الثانية، تدعو إلى الانفصال عن العالم دون إعلان الحرب ضده، مع تقديم رسالة الخلاص له، وهي بذلك تُقسم البشر إلى نوعين، أخيار وأشرار، مؤمنين وخطأة، وتستند في ذلك على بعض آيات الكتاب المقدس، منها: «لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ. لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ. كَمَا أَرْسَلْتَنِي إِلَى الْعَالَمِ أَرْسَلْتُهُمْ أَنَا إِلَى الْعَالَمِ. لَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هَؤُلاَءِ فَقَطْ بَلْ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكلاَمِهِمْ.» (يوحنا ١٧: ١٥، ١٦).

المدرسة الثالثة تنادي بأهميّة الاندماج ومشاركة المجتمع، والعالم، في التغيير نحو الأفضل ونحو كلّ ما يرتقي بالإنسان، اجتماعيًّا وسياسيًّا ودينيًّا، وأصحاب هذا الفكر يؤمنون أنَّ المؤمنين جزء من كيان هذا العالم الماديّ، وعليهم التفاعل مع مجتمعاتهم بهدف التغيير، ويستندون على قول المسيح: «أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ» (مرقس ١٢: ١٧)، وتعتمد هذه المدرسة على تأصيل فكرة ثنائيّة المواطن المسيحي، فالمسيحي يحيا مشدودًا نحو وطنه السماوي، لكنه يعيش في وطن أرضي، وهنا يبرز دور المواطن المسيحي في المشاركة في فعاليات تحقيق الأفضل لوطنه، ولمواطنيه، تحقيقًا لقول المسيح: «أَتَيْتُ لِتَكُونَ لَهُمْ حَيَاةٌ وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ» (يوحنا ١٠: ١٠).

وقد يتعرض الوطن لأنظمة حكم استبداديّة، أو ديكتاتوريّة، أو فاشيّة، ويُعاني المواطن من أشكال عبوديّة ظالمة وقاهرة، عبوديّة ثقافيّة، سياسيّة، عرقيّة، دينيّة، اجتماعيّة واقتصاديّة. وتبرز الرغبة الإنسانيّة في التحرر من الظلم والاستبداد، هذه الرغبة التي لم ولن تكون وليدة الظرف التاريخي أو الجغرافي أو السياسي، بل هي التوق إلى الحرّيّة، المكتوبة في قلب الإنسان المخلوق على صورة الله ومثاله، أي المدعوّ ليعيش كابن لإله الحرّيّة، لكن قد تترجَم هذه الرغبةُ بطرق متعددة ومتنوعة، منها السلمي، ومنها العنفيّ. ويبقى السؤال الأكثر إلحاحًا، ما هي الدعائم الكتابيّة واللاهوتيّة التي يتم الرجوع إليها في تأييد ودعم حق الإنسان في تحقيق حرّيته، كجزء من منظومة متكاملة من المساواة والحرّيّة والعدالة الاجتماعيّة لمجتمعه، والتي قد تتخذ من الاحتجاجات والثورات سبيلًا لتحقيقها؟

الاحتجاج والثورة في المفهوم اللاهوتي المسيحي

د. القس نصرالله زكريا

إن «التحرير» شعار عصري، لكنّه أيضًا معنىً إنجيلي أصيل، حيث يمثل مفهوم «التحرير» واحدًا من أهم موضوعات الكتاب المقدس الأساسيّة. لذا سنحاول في السطور التاليّة تقديم قراءة كتابيّة لاهوتيّة إزاء الاحتجاجات والثورات.

١- اللاهوت المسيحي والمساواة

يقوم الفكر اللاهوتي المسيحي على حق المساواة بين البشر في الإنسانيّة، نقرأ من سفر التكوين وبالتحديد قصة خلق الله للإنسان وما تبعها من قيمة إنسانيّة ومساواة بين البشر جميعًا، نقرأ: و»جَبَلَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيّة» (تكوين ٢: ٧)، كما أنَّ الله خلق «الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ.» (تكوين ١: ٢٧)، إذًا البشر جميعًا مخلوقين من مصدر واحد، وبالتالي فجميع البشر أمام الله متساوون في الحقوق والواجبات، لا فرق بين ذكرٍ أو أنثى، بين غني أو فقير، بين أشقر أو أسمر، فالجميع على صورة الله، ومتساوين أمامه.

وقد جاء البندان الأول والثاني من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في اتساق وانسجام مع الكتاب المقدس ومؤكدين على حق المساواة بين جميع البشر، حيث يذكر الإعلان: «يولد جميع الناس أحرارًا ومتساوين في الكرامة والحقوق. وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضًا بروح الإخاء، لكل إنسان حقّ التمتع بجميع الحقوق والحريات المذكورة في هذا الإعلان، دونما تمييز من أيّ نوع، ولا سيما التمييز بسبب العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين، أو الرأي سياسيًّا وغير سياسي، أو الأصل الوطنيّ أو الاجتماعيّ، أو الثروة، أو المولد، أو أي وضع آخر»، وهنا مرة أخرى نؤكد انطلاقًا من الفكر الكتابي واللاهوتيّ أنّ المساواة بين البشر هي حقّ مكفول للجميع، فلا يحقّ التمييز بين البشر على أسس عرقيّة أو دينيّة أو سياسيّة أو طبقيّة.

وقد ذكر الكتاب المقدس بعضًا مما يؤكد على المساواة بين الأجناس، بين العبيد والأحرار، بين الرجل والمرأة، بين الغني والفقير.

* «لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلاَ يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعًا وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ...» (غلاطيّة ٣ :٢٨).
* « اَلْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ يَتَلاَقَيَانِ. صَانِعُهُمَا كِلَيْهِمَا الرَّبُّ» (أمثال ٢٢: ٢).

٢- اللاهوت المسيحي والتحرير

التحرير، أو الخلاص، كمصطلحٍ كتابي، والفداء كفكرٍ لاهوتي، هو أولًا وأخيرًا، عمل إلهيّ، قام به وتمّمه الله، وهناك قناعة كتابيّة أساسيّة أنَّ الإنسان عاجز عن تخليص نفسه. وأن الله هو الذي قدّم نفسه كالمخلص الوحيد. حيث رأى بؤس شعبه وقرّر تحريره: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ أَجْلِ مُسَخِّرِيهِمْ. إِنِّي عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُمْ. فَنَزَلْتُ لأُنْقِذَهُمْ..» (خروج ٣: ٧، ٨)، فالشعب في بؤسه، وذلّ عبوديّته، صرخ لإلهه، الذي أتى ليحرّره ويخلّصه، وفي الكتاب المقدّس، «الصراخ» هو لغة الألم، وهو أيضًا الاعتراض الصامت. لم ولن يتحمّل الله أن يترك شعبه في العبوديّة، فيتدخّل ليحرّره. إنَّ عمل الله الخلاصي دافِعَهُ فقط حبه لشعبه. والله وحده مَن يمنح الحرّيّة للشعب، وليس الإنسان. لهذا يؤكد الكتاب على أنّ إرادة الله هي تحرير كلّ البشر، فإنّه «يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ» (١تيموثاوس ٢: ٤)، وقد كلّف المسيح تلاميذه بأنْ يحملوا بشرى الخلاص والتحرير لكل شعوب الأرض، دون تمييز بين شعب وآخر، قائلًا: «اذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ» (متى ٢٨: ١٩).

إنَّ التحرير في معناه المسيحي هو الخلاص والتحرير من الخطيئة الأصليّة والشخصيّة والتاريخيّة أو الاجتماعيّة؛ والحرّيّة في هذا الإطار عطيّة من الله الذي يحرّرُنا من الخطيئة، من الموت ومن الناموس (رومية ٦: ١٨-٢٣). وهي جزء أساسيّ من التحرير الكامل الذي يقدمه الله في المسيح، من خلال فدائه، ومحبته، وصولًا للمصالحة مع الله.

ويرى «لاهوت التحرير»، أنَّ مفهوم اللاهوت المسيحي للفداء والتحرير لا يقف فقط عند الخلاص بمعناه الروحيّ، أو يقتصر على العبارات والمعاني التي تتعلق بالخلاص الأبديّ والحياة المجيدة التي ستتحقق في ملكوت الله في حياة ما بعد الموت، بل يجب أن يشمل تحقيق مفهوم ملكوت الله كواقعٍ يُعاش هنا والآن.

من هذا المنطلق يرتكز «لاهوت التحرير»، على الانحياز الكامل للفقراء والضعفاء والمهمشين والمقهورين ضد الاستبداد والقهر والقمع، حتى أنه يُفسِّرُ الخطيئة على أنها الموقف القابل لقوى الاستبداد والقهر وكل أشكال الظلم، والغياب العملي للمحبة بين البشر، كما يركز على أنَّ رسالة الكنيسة تتخطى الرسالة الروحيّة إلى مناصرة العدل ومحاربة الظلم.

٣- اللاهوت المسيحي وحرّيّة التعبير عن الرأي وتقرير المصير

يؤكد اللاهوت المسيحيّ على حرّيّة الإنسان، وهي هبة منحها الله لجميع البشر، إنها ليست أمرًا يكتسبه الإنسان من نظام أو أمير أو ملك أو رئيس، أو حتى من أيّ تشريع دنيوي؛ إنما دور الإنسان الوحيد أن يعي في ذاته أنه كائن خلقه الله حرًّا، وعليه بالتالي أن يؤهل نفسه والآخرين لممارسة هذه الحرّيّة.

وقد عبَّر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عن هذه الحرّيّة في مادته رقم (١٩)، بالقول: «لكل شخص حق التمتع بحرّيّة الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حريته في اعتناق الآراء دون مضايقة، وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقّيها ونقلها إلى الآخرين، بأيّة وسيلة ودونما اعتبار للحدود».

إنَّ حرّيّة الإنسان في التعبير عن الرأي والمعتقد حق أصيل وهبه الله إياه، وما على الإنسان إلا قبول هبة الحرّيّة والتمتّع بها وتحمل مسؤولياته تجاهها، والحرّيّة من هذا المنطلق تعني الإقرار بوجود آخر يتمتع بذات الحرّيّة، ومن يحمل عبء الحرّيّة يقبل حرّيّة الإنسان الآخر، كما يقبل الإنسان في إطار حريته الاستعداد لقبول خيارات بين أمور مختلفة، ولأن الإنسان حرٌ فهو مدعو للتفكير العقلاني المنطقي، ويقبل بجرأة فائقة ما يقوده إليه عقله ولو خالف المألوف والموروث وما اعتاد عليه، ويتّخذ الموقف الذي يراه مناسبًا متحمّلًا مسؤوليّة اختياره. وتبلغ حرّيّة الإنسان مداها في قبوله أو رفضه للإيمان بالله، أو طاعته، وقد خلق الله الإنسان حرًا، وواجَهَه بمسؤوليّاته وتبعات قراراته التي يتخذها بحرّيّة كاملة، حين أوصاه قائلًا: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا، وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلا تَأْكُلْ مِنْهَا لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتا تَمُوتُ» (تكوين ٢: ١٦، ١٧)؛ ومرة أخرى يعود الله ويؤكد على حرّيّة الإنسان في تقرير مصيره، إذ يقول: «أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ. قَدْ جَعَلتُ قُدَّامَكَ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ. الْبَرَكَةَ وَاللعْنَةَ. فَاخْتَرِ الْحَيَاةَ لِتَحْيَا أَنْتَ وَنَسْلُكَ» (تثنية ٣٠: ١٩)، هذه الحرّيّة احترمها الله في علاقته مع الإنسان عبر تاريخه.

٤- المواطنة

المواطنة تعني الانتماء والولاء والحقوق والواجبات، وهي جوهر العقد الاجتماعي بين المواطن والدولة، بموجبه يتمتّع المواطن بحقوق وحريات قانونيّة وسياسيّة واقتصاديّة وثقافيّة، مقابل أن يؤدّي التزامات عديدة، من بينها: أداء الضرائب المقرّرة، والخضوع للقانون، واحترام حقوق وحريات الأفراد، والعمل بجد واجتهاد للارتقاء بأحوال الوطن دون اعتبار للاختلاف في الجنس أو اللون أو العرق أو النوع أو المكانة الاجتماعيّة.

وفي حين يعتقد البعض أنَّ قضيّة المواطنة هي قضيّة سياسيّة بحتة، أو أنها قضيّة إنسانيّة لا علاقة لها بالنظريات اللاهوتيّة ولا بالدراسات الكتابيّة، نجد الكتاب المقدس يؤكد على أن قضيّة المواطنة قضيّة لها أبعادها الكتابيّة، وأن اضطلاع المواطن بمسؤوليّاته وواجباته تجاه وطنه هو جزء لا يتجزأ من مسؤوليات الإنسان المسيحي عامة، والمؤمن خاصة.

والمواطنة علاقة التي تربط الإنسان بوطنه، (الأرض والمجتمع)، هذا الارتباط يُشكِل هويّة الفرد والجماعة، كما أنها تطبع في المواطن صفات مجتمعيّة وإنسانيّة وليدة الأرض والجماعة، وتتجاوز الطوائف والملل والطبقات الاجتماعيّة والفئويّة كما تتجاوز مفهوم الأقليّة بتداعياته المختلفة، لكن عندما تختل العلاقة التي تربط المواطن بالدولة التي يعيش فيها، بحيث يشعر بالغبن والظلم، أو القهر والقمع وغيرها، في منحى من مناحي الحياة التي تنظمها الدولة، فقد تنتابه مشاعر السلبيّة أو الاغتراب وقد يشعر بعدم الرضا، ويضعف شعوره بالانتماء أو الولاء لوطنه.

ولقد اجتاز الشعب قديمًا وهو في أرض السبي هذه المشاعر حتى أنه توقف عن حالة الفرح والبهجة والشعور بالرضى: «عَلَى أَنْهَارِ بَابِلَ هُنَاكَ جَلَسْنَا. بَكَيْنَا أَيْضًا عِنْدَ مَا تَذَكَّرْنَا صِهْيَوْنَ. عَلَى الصَّفْصَافِ فِي وَسَطِهَا عَلَّقْنَا أَعْوَادَنَا. لأَنَّهُ هُنَاكَ سَأَلَنَا الَّذِينَ سَبُونَا كَلاَمَ تَرْنِيمَةٍ وَمُعَذِّبُونَا سَأَلُونَا فَرَحًا: رَنِّمُوا لَنَا مِنْ تَرْنِيمَاتِ صِهْيَوْنَ. كَيْفَ نُرَنِّمُ تَرْنِيمَةَ الرَّبِّ فِي أَرْضٍ غَرِيبَةٍ؟ إِنْ نَسِيتُكِ يَا أُورُشَلِيمُ تَنْسَى يَمِينِي. لِيَلْتَصِقْ لِسَانِي بِحَنَكِي إِنْ لَمْ أَذْكُرْكِ! إِنْ لَمْ أُفَضِّلْ أُورُشَلِيمَ عَلَى أَعْظَمِ فَرَحِي!» (مزمور ١٣٧: ١-٦).

لم يرضَ الله عن هذا الشعور، فجاءت نبوة إرميا تصحيحًا لتلك المفاهيم الخاطئة، وتأكيدًا على أهميّة العلاقة التفاعليّة بين الإنسان والدولة التي يحيا على أرضها، حتى وإن لم تكن وطنه الذي إليه ينتمي بالميلاد، تقول النبوة: «هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ لِكُلِّ السَّبْيِ الَّذِي سَبَيْتُهُ مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى بَابِلَ. ابْنُوا بُيُوتًا وَاسْكُنُوا وَاغْرِسُوا جَنَّاتٍ وَكُلُوا ثَمَرَهَا. خُذُوا نِسَاءً وَلِدُوا بَنِينَ وَبَنَاتٍ وَخُذُوا لِبَنِيكُمْ نِسَاءً وَأَعْطُوا بَنَاتِكُمْ لِرِجَالٍ فَيَلِدْنَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ وَاكْثُرُوا هُنَاكَ وَلاَ تَقِلُّوا. وَاطْلُبُوا سَلاَمَ الْمَدِينَةِ الَّتِي سَبَيْتُكُمْ

إِلَيْهَا وَصَلُّوا لأَجْلِهَا إِلَى الرَّبِّ لأَنَّهُ بِسَلاَمِهَا يَكُونُ لَكُمْ سَلاَمٌ» (إرميا ٢٩: ٤-٧).

إن المواطنة دعوة إلهيّة ترتبط بالمكان، والمجتمع، والدولة التي نحيا على أرضها، ولقد أظهر المسيح إيجابيّة ونموذجًا يحتذى، في تأكيد نموذج المواطن الفاعل لأجل وطنه، فقد تعامل مع جميع أفراد وطبقات المجتمع بمساواة حقيقيّة، مدركًا أن المساواة وعدم التمييز بين أفراد المجتمع هي لبّ وجوهر المواطنة، كما كان يجول يصنع خيرًا، يُشبع الجوعى، ويشفي المرضى ويردّ الحياة للموتى، ويدعو الجميع للحياة الأفضل، ومن جهة أخرى كان يؤدي ما عليه من واجبات فقدّم الضريبة عن نفسه وشجّع تلاميذه أن يفعلوا كذلك (متى ١٧: ٢٤-٢٧)، حتى في مقولته الشهير والتي مازالت أصداءها تردّد حتى اليوم، حينما سئل عن الموقف من تقديم الضرائب لقيصر، قال: «أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ» (مرقس ١٢: ١٧).

وعلى نهج المسيح سار التلاميذ والرسل، فأكدَّ الرسول بولس على المساواة الكاملة بين الجميع، فلا فرق بين رجل وامرأة، بين عبد وحر، بين جنس وآخر، هذه المساواة التي هي أساس المواطنة، ولقد أدرك بولس أن سيادة القانون والمساواة في تطبيقه على جميع أفراد المجتمع هي جزء لا يتجزأ من تفعيل المواطنة الحقة.

إن من يحاول أن يضع فاصلًا بين الحياة المسيحيّة والمواطنة، بين المسيحي والالتزامات التي يفرضها عليه انتماؤه لوطنه، بل إن من يحاول الفصل بين الانتماء لله والانتماء للوطن والمجتمع، يبتعد عن الفهم الصحيح للكتاب المقدس، لأن الانتماء الحقيقيّ لله، والحياة المسيحيّة الحقة، تظهر في المواطنة الصالحة وفي السلوك اليومي للإنسان المسيحي.

٥- دعوة الكتاب المقدس لإرساء العدل ومناهضة الظلم والقهر

إنّ مصطلحَ العدل في الكتاب المقدّس أوسع مدلولًا ممّا في لغاتنا الحديثة. فالعدل مبدأ كتابيّ ولاهوتيّ واجتماعيّ وفضيلة، أي سلوك واجب على الإنسان لتأكيد وتعزيز الحياة الصالحة والمنسجمة في المجتمع.

والعدل أحد صفات الله، ويعني عدل الله أن ليس عنده ظلم ولا محاباة ولا يعوّج القضاء ولا يأخذ بالوجوه ولا يتزعزع: «لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ هُوَ إِلهُ الآلِهَةِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ الإِلهُ العَظِيمُ الجَبَّارُ المَهِيبُ الذِي لا يَأْخُذُ بِالوُجُوهِ وَلا يَقْبَلُ رَشْوَةً.» (تثنية ١٠: ١٧).

والعدل صفة إنسانيّة أمر الله بها البشر، مسؤولين كانوا أو غير مسؤولين، لكي يكونوا على مثاله في عدله. وقد أكدّ أنه ينبغي على الحكام والقضاة، أولًا: أن يحكموا ويقضوا بالعدل: «العَدْل العَدْل تَتَّبِعُ لِكَيْ تَحْيَا وَتَمْتَلِكَ الأَرْضَ» (تثنية ١٦: ٢٠)، وللقضاة يقول: «لا تَنْظُرُوا إِلى الوُجُوهِ فِي القَضَاءِ. لِلصَّغِيرِ كَالكَبِيرِ تَسْمَعُونَ. لا تَهَابُوا وَجْهَ إِنْسَانٍ لأَنَّ القَضَاءَ لِلهِ» (تثنية ١: ١٧)، وثانيًا: أن ينتصروا للفقير والمسكين، «اِفْتَحْ فَمَكَ. اقْضِ بِالْعَدْلِ وَحَامِ عَنِ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ» (أمثال ٣١: ١٤)، ولا يفرقوا بين مواطن وأجنبي، يقول: «وَإِذَا نَزَلَ عِنْدَكَ غَرِيبٌ فِي أَرْضِكُمْ فَلاَ تَظْلِمُوهُ. كَالْوَطَنِيِّ مِنْكُمْ يَكُونُ لَكُمُ الْغَرِيبُ النَّازِلُ عِنْدَكُمْ» (لاويين ١٩: ٣٣).

وترتبط العدالة أساسًا بالسلوك تجاه الآخرين، وبخاصة فيما يتعلق بحقوقهم سواء في القضاء أو الحياة اليوميّة (لاويين ١٩:٣٥، ٣٦، تثنيّة ١٣: ١٦-٢٥، أمثال ١١: ١، ١٦: ١١، حزقيال ٤٥: ٩، ١٠، عاموس ٨:٥)، وليس العدل هو مجرد إعطاء الآخرين حقوقهم، بل يتضمن الواجب الايجابي من جهة ضمان أداء هذه الحقوق.

إن تحقيق العدل والعدالة الاجتماعيّة مسؤوليّة جميع الشعب، فإجراء العدل هو جزء من السير مع الله وانعكاس لمحبّته التي لا تتغير (ميخا ٦: ٨)، وهو جزء لا يتجزأ من الواجب الإنساني دينيًا ودنيويًا، ومن هنا فإن إجراء وتحقيق العدل دائمًا ما يكون في الدفاع عن حقوق الإنسان عامة، وبخاصة المسكين والفقير والمظلوم، والمقهور، والاستماع إلى صراخهم، والحفاظ على كرامة الإنسان، فجميع البشر يولدون أحرارًا ومتساوين في الكرامة والحقوق، ولا يجوز إخضاع أحد للتعذيب ولا للمعاملة اللاإنسانيّة أو الحاطّة بالكرامة.

ومن هنا يأتي دور الإنسان المسيحي مستندًا على ما يوصي به الكتاب المقدس، من جهة، وعلى ما نصَّت عليه مبادئ حقوق الإنسان والمواثيق الدوليّة من جهة أخرى، في التحرك الإيجابيّ نحو تحقيق وإرساء العدل والعدالة الاجتماعيّة ومناهضة الظلم والقهر الذي يتعرض له الآخر. وتأتي الاحتجاجات والتظاهرات السلميّة كأحد أشكال التعبير عن الرأي والاعتراض على النظم الجائرة التي تظلم وتقهر وتقمع حرّيّة الإنسان، ولا تحقّق له العدالة المرجوة، وهذه حقوق ديمقراطيّة يكفلها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والعهدان الدوليان للحقوق المدنيّة والسياسيّة، والحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة، فضلًا عن معظم دساتير العالم.